فقه اللغة

دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية

تأليف الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق

٢٠٤ صفحة من القطع المتوسط ـ مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠ م

« دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية في تركيب حروفها واشتقاقها ووزنها ومعناها ، في حركتها المتطورة ، تصل بين تراثنا اللغوي والنظرات الحديثة في فقه اللغة وتكشف عن جوانب أساسية من عبقرية اللغة العربية وخصائصها » بهذا الشعار الرائع استهل الأستاذ محمد المبارك كتابه الجديد ، ثم قدمه الى القراء خير تقديم يدفع الى متابعته ، ومسابقة الزمن في قراءته ، وهو حقاً طريف في موضوعه ، رفيع في أسلوبه ، عميق في نظرته ، واضح الأهداف والغايات .

لقد جمع المؤلف ، في صفحات معدودات ، عناصر التقديم وأوجزها أجمل إيجاز ، فقال عن الباعث له على التأليف : « عهدت الي كلية الآداب في عام ١٩٤٩ تدريس فقه اللغة فيها ، فصادف هذا التكليف هوى في نفسي يرجع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى عهد بعيد ... » ثم حدثنا عن هواه القديم والبيئة التي عاش فيها ، والرجل الذي يدين له ـ ويدين له أبناء هذا الجيل ـ بحب العربيـة وتراثها العظيم ـ أبيه وأستاذنا عبد القادر المبارك ـ فقال : « كان رحمه الله لكثرة ما عانى من كلام العرب وروى من لغتهم وعرف من سيرتهم وأخبارهم وأولع بأدبهم ، يخيل الى جليسه والمستمع إلى حديثه أنه يصغي إلى واحد من رواة اللغة الأولين وعلمائها المتقدمين » ثم ذكر أسماء المعاصرين ممن اطلع على مؤلفاتهم في العربية أو في اللغات الأجنبية وأفاد منها .

ووصف المؤلف طريقة التأليف التي انتهجها فقال انها : « كانت دراسة اللغة العربية من خلال النظرات الحديثة والأبحاث المقارنة في فقه اللغة دون أن ندخل الضيم على العربية أو نلحق بأصولها وخصائصها غبناً أو ظلماً ، فلم نحاول أن تكون دراستنا تقليداً أو احتذاء لدراسة اللغات الأخرى ، فإن للعربية عبقريتها وخصائصها ، لذلك لم نأخذ من النظرات الحديثة إلا اتجاهها ومناهجها أو بعضها ومسائلها العامة المشتركة بين اللغات » ، ثم ذكر المؤلف المصادر العربية القديمة التي نقل عنها بعض الشواهد مما سبق اليه علماء العربية من نظرات نافذة أو إبداع في البحث ذاكراً أنه يحاول في كتابه تقديم أساس لنظرية شاملة في فقه اللغة العربية في جميع عصورها على طريقة المقارنة والموازنة بين العربية واللغات الحديثة مع قصر الأمثلة غالباً على الفرنسية حتى جاءت أبحاث الكتاب مزيجاً من فقه اللغة العام والمقارن وفقه اللغة العربية » .

على أننا نلاحظ على تقديم الكتاب إغفاله الإشارة إلى سبب تفضيل المؤلف تسمية كتابه « فقه اللغة » على تسميته « علم اللغة » ، حقيقة إن المؤلف أشار إلى ذلك في الصفحة ٢٦ فقال « وإننا باستعمالنا هذه التسمية وإطلاقنا على هذا العلم أحد الاسمين نكون قد جارينا قدماءنا الذين استعملوهما كليهما وأصابوا كل الإصابة في ذلك » ولكننا لا نرى في هذا القول ، بالإضافة إلى أنه جاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

متأخراً ، تعليلاً كافياً بالنسبة لكتاب اختار مؤلفه « طريقة المقارنة والموازنة بين العربية واللغات الحديثة » وجعل « علم اللغة » عاماً يتناول اللغات المعروفة ، فاذا كان خاصاً بلغة من اللغات يتتبع ظواهرها وخصائصها وتطورها وقوانينها سمي حينئذ علم اللغة الخاص كعلم اللغة العربية ـ ص ٧ » ، وخير تسمية ـ في رأينا ـ لمثل هذا الكتاب بمباحثه المقارنة والغاية منها هي « المدخل إلى علم اللغة » أما تعبير « فقه اللغة » فنرى أن يقتصر فيه على المباحث التي عالجها علماء العربية في موضوعه ، وهي ولا شك جزء من « علم اللغة » ، ونحن لسنا من مؤيدي استعمال لفظتي « فقه » و « علم » أو لفظتي « فقهاء » و « علماء » مترادفتين في مواطن يحسن الاقتصار فيها على إحداهما ، كما فعل المؤلف في مواضع كثيرة فهو يقول مثلاً : أورد علماء الصرف وفقهاء اللغة أبنية الجموع وجعلوها أقساماً ، كما أورد علماء اللغة الألفاظ التي شذت عن القاعدة .. ص ـ ١١٣ » .

ومما لفت نظرنا أثناء مطالعة الكتاب وقوف المؤلف متردداً في أمور مضى زمن التردد فيها ، من ذلك الإجابة على الأسئلة التي تعرض للباحثين في موضوع أوزان الألفاظ وصيغها فهو يقول مثلاً ـ ص ١٣٢ ـ « هل لنا أن نأتي بصيغ جديدة ونبتدع أوزاناً مستحدثة لأداء حاجاتنا الفكرية الجديدة ، وما هي الطريقة اذا كان ذلك جائزاً ، وكيف تصاغ هذه الأوزان ؟ وهل لنا أن نحيي صيغاً حكم المتقدمون بجمودها أو موتها ، أو قالوا إنها سماعية لا يقاس على مثالها ، وانما يكتفى بما ورد عن العرب من ألفاظ على وزنها كجمع مفعول على مفاعيل أو جعل (مَفْعَلة) للمكان الذي يكثر فيه الشيء و (فُعال) للأمراض فهل لنا أن نجعلها قياسية ؟ وهل لنا أن نتوسع في معاني الصيغ والأوزان المعروفة فننقلها إلى معان أخرى أو نضيف إلى معناها معنى جديداً ؟ » ويجيب المؤلف على هذا التساؤل قائلاً : « إني سأقف هنا دون الإجابة على هذه الأسئلة لأني أعتقد أن الجواب العلمي عليها سابق لأوانه لأنه يفترض انتهاء البحث في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أصول الأبنية وتطورها والحصول على معرفة واضحة كاملة لحاضرها وماضيها ، أما استعجال الجواب بالاستناد الى ما اتضح لدينا من معرفة وما انفتح أمامنا من آفاق وتجمع لدينا من آراء فذلك ما لا يستطيع المتأمل في هذا البحث أن يجازف بالقائه وان كان الخروج من هذا الموقف أمراً لا بد منه لأننا أمام مشكلة لغوية لا نستطيع إلاّ أن نحلها على وجه وإن سكتنا عنها لم تسكت الألسنة التي تقول والأقلام التي تكتب لتعبر عن هذه الحياة التي أصبحت غنية بالمعاني خصبة كثيفة معقدة » .

والعصر الذي نعيشه اليوم لا يحتمل التردد في الإجابة عن الأمور التي تساءل المؤلف عنها ، إنما كل ما نحتاجه هو وضع القواعد لاستحداث الصيغ الضرورية وابتداع الأوزان اللازمة لمسايرة الحياة الفكرية ، ونحن لا ننكر جهود العلماء الذين نادوا بوضع كثير من القواعد ، كما لا ننكر قيمة القواعد الهامة التي أقرها مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ سنة ١٩٣٤ والتي تشفي بعض غليل النفوس المحبة للعربية[1] ، ومن أهمها القواعد التالية :

١ — « يرى المجمع أن الكلمات التي يستعملها قدماء النحويين والصرفيين وهي : القياس ، والأصل ، والمطرد ، والغالب ، والأكثر ، والكثير ، والباب ، والقاعدة ألفاظ متساوية في الدلالة على ما ينقاس ، وان استعمال كلمة منها في كتبهم يسوّغ للمحدثين من المؤلفين وغيرهم قياس ما لم يسمع على ما سمع ، وأن المقيس على كلام العرب هو من كلام العرب[2] » .

---

(١) انظر كتاب المصطلحات العلمية للأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي ص ٦٢ وما بعدها ، القاهرة ١٩٥٥ — والنظر مقاله عن أهم القرارات العلمية لمجمع اللغة العربية في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٤ م ٣٢ ص ٥٧٧ سنة ١٩٥٧ .

(٢) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ٤ وشرح الشيخ أحمد الإسكندري للقرار المذكور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٢ — « قرر المجمع أن يقاس من فَعَل اللازم المفتوح العين مصدر على وزن فُعال للدلالة على المرض [١] » .

٣ — « أقر المجمع أن يصاغ قياساً من الفعل الثلاثي على وزن مِفْعَل ومِفْعَلة ومِفْعال للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء [٢] » .

٤ — « أقر المجمع أن يصاغ للدلالة على الحرفة أو شبهها من أي باب من أبواب الثلاثي مصدر على وزن فِعالة بالكسر [٣] » .

٥ — أقر المجمع أن يقاس المصدر على وزن فَعَلان لفَعَل اللازم المفتوح العين إذا دلّ على تقلب واضطراب [٤] » .

٦ — « أقر المجمع أن جمع الجمع مقيس عند الحاجة كأقوال تجمع على أقاويل [٥] » .

ومما لفت نظرنا أيضاً أن الأستاذ المؤلف عندما بحث في الاشتقاق — ص ٦٧ وما بعدها — أيد النظرية التقليدية في أن الكلمة العربية ثلاثية الأحرف ، وردّ على القائلين بالثنائية ، وبذلك تابع الأستاذ عبد الله العلايلي في كتابه (مقدمة لدراسة لغة العرب) فقال : « نوافق الأستاذ العلايلي في رأيه السديد الذي يتلخص باستقرار العربية على الأساس الثلاثي واعتبار الأصل الثنائي مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجدياً إلاّ ضمن هذا الاعتبار التاريخي » ثم أضاف إلى هذا قوله : « ولكني أرى مع ذلك أن النظرية الثنائية عدا صفتها التاريخية لا تزال في بداية البحث والذين قالوا بها لم يبنوا أبحاثهم على أساس استقراء واسع ولا يكفي لإثبات صحة هذه النظرية في لغة عدد موادها لا ألفاظها تزيد

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ١ وشرح الشيخ الإسكندري — وانظر تعليق الأمير مصطفى الشهابي في مجلة المجمع العلمي العربي ج ٤ م ٣٢ وج ٣ م ٣٣ .
(٢) و (٣) و (٤) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ١ القاهرة سنة ١٩٣٥ .
(٥) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على ثمانين ألفاً صدقها في عشرات الأمثلة بل في مئات منها » وهذا القول مقبول إلاّ أننا نشعر بأنه يصدم القارئ لوروده بصيغة الاستدراك على تأييد رأي الأستاذ العلايلي من جهة ولأنه لم يحو تنويهاً بجهود بعض العلماء القائلين بالثنائية في خدمة الكلمة العربية .

ويشير المؤلف في مواضع كثيرة إلى علاقة معنى الكلمة العربية بنغمتها الموسيقية ، وإلى أثر النغمة أو الجرس في لفظ بعض الحروف أو إبدالها أو إدغامها ، وإلى آثار التبدلات الصوتية في كثير من اللغات ، وفائدة دراسة ذلك في معرفة علة تباعد لفظ بعض الكلمات في اللغة الواحدة أو في اللغات المتعددة ذوات الأصل الواحد ، ونضيف إلى هذا القول بأن دراسة موسيقا اللفظ قد تنير السبيل إلى معرفة تطور كثير من الكلمات واختلاف لفظها بين قبيلة وقبيلة أو بلد وبلد أو شعب وشعب باختلاف آذانهم الموسيقية الناشئ بفعل الطبيعة الاقليمية أو الجغرافية أو بفعل الوراثة والاعتياد ، كما قد تفيد كثيراً في دراسة أصول الكلمات العربية وخاصة المزيد منها رباعياً كان أو خماسياً ، ومن الأمثلة التي تفيد في تأييد هذا الرأي ما جاء في اللسان في مادة حظظ [1] : « ومن العرب من يقول (حنظ) وليس ذلك بمقصود ، إنما هو غنة تلحقهم في المشدد ، بدليل أن هؤلاء إذا جمعوا قالوا (حظوظ) قال الأزهري : وناس من أهل حمص يقولون (الحنظ) فاذا جمعوا رجعوا الى (الحظوظ) وتلك النون عندهم غنة ، ولكنهم يجعلونها أصلية ، وإنما يجري هذا اللفظ على ألسنتهم في (المشدد) نحو الرز يقولون (الرنز) ونحو أُتْرُجّة يقولون اترنجة » .

والنون التي يشير اليها الأزهري مازالت عند بعض أهل حمص إلى يومنا هذا ، وعجائزها مازلن يطلقن على المدعي العام اسم (المندعي العام) ، وأهل

(١) انظر ج ٧ ص ٤٤٠ من الطبعة الجديدة – وانظر مقال الأب انستاس ماري الكرملي من مجلة مجمع اللغة العربية ج ١ ص ٢٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشام مازالو يقولون (انجاص) بدلاً من (اجاص [١]) ، حتى إن الأب الكرملي يرى أن ألفاظ (الأنجانة [٢]) و (الخنزر [٣]) و (القُنبَرة [٤]) وهي من لغات العرب أصلها الإجانة والخنزير والقُبَّرة .

ومما يتصل بهذا الرأي مثل في نقل اللغات بعضها عن بعض ، إذ يرى بعض العلماء [٥] ان لفظة (العَجِل) ككتف وهي عربية النجار وتفيد معنى السريع الحركة والانتقال نقلها اليونانيون إلى لغتهم هكذا aggelos ولفظوها angelos وأرادوا بها الرسول والملك والروح الذي يعمل بمشيئة الله ، وعن اليونانية انتقلت الكلمة إلى اللاتينية بلفظ angelus ثم إلى الانكليزية بلفظ angel والى الفرنسية بلفظ ange .

ومما جلب انتباهنا في الكتاب أن المؤلف نقل في الصفحة ٨١ عن ابن جني قوله : « نعم ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر والحكمة اعلى واضع ... »

---

(١) الإجّاص البُرقُوق Prunier ويطلقه الشاميون خطأ على الكمثرى ، انظر معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي طبعة ٢ ص ٥٣٩ – وانظر مقاله « نظرة في المنجد » في مجلة المجمع العلمي العربي ج ٣ سنة ١٩٥٧ ، ويلاحظ أن مؤلف المنجد لم يخطىء في تعريف الإجاص إنما الخطأ كان في تعريفه للكثراة بأنها الإجاصة ولو أضيف إلى هذا التعريف جملة – عند أهل الشام – ورفع مخرج المعجم الصورة التي زين بها تعريف الاجاص ، لأصبح التعريفان صحيحين وانسجما مع تعريف المعجم للبرقوق بأنه إجاص بري .

(٢) الإجانة والأنجانة المركن وهو اناء تغسل فيه الثياب ، وفي اللسان الإجانة أفصح وقال الجوهري ولا تقل إنْجانة .

(٣) جاء في اللسان في مادة خزر الخنزير من الوحش العادي معروف مأخوذ من الخَزَر (الحَوَل) لأن ذلك لازم له ، وقيل هو رباعي .

(٤) جاء في اللسان القُبَّرة والقُنبَرة طائر يشبه الحُمَّرة والقَنبراء لغة فيها ، ثم قال والعامة تقول القنبرة .

(٥) الأب الكرملي في المقال المشار اليه سابقاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعلق على هذا القول في الهامش قائلاً : «هكذا وردت في طبعة دار الكتب المصرية ولعلها أجلى وأنصع» ونحن نقول «لعلها ـ أعلى وأصنع ـ ففي اللسان : رجل صَنع اللسان ولسان صنع ، يقال ذلك للشاعر ولكل بيّن . وفي القاموس يقال ذلك لكل بليغ» .

وفي الكتاب بعض التطبيعات أشار المؤلف الى كثير منها ، ومما لم يشر إليه لفظة وردت في قول لأعرابي يعلل اشتقاق لفظة الخيل من الخيلاء : «ألا تراها تمشي العَرَضْنَة خيلاء وتكبراً» فجاءت العرضنة بفتح العين ، وفي اللسان : «العِرَضْنة الاعتراض في السير من النشاط ، والفرس تعدو العِرضنى والعِرَضْنة» .

والمؤلف بعد كل هذا مشكور على جهوده العظيمة ، فكتابه جليل الفائدة ، يخدم العربية ، ويثير السبيل إلى خدمتها ، لأنه ـ كما يقول في خاتمته ـ «دراسة شاملة تعطينا فكرة صحيحة عن اللغة العربية ومزاياها وخط تطورها» .

عمر ناصر الخطيب